الصَّالح إسماعيل، ثم أتى إلى الفرنج، وأقام معهم مُدَّة، وعاد إلى دمشق، واعتقله الصَّالح في عزَّتا، ثم هلك في سنة إحدى وأربعين [وست مئة][1].

وسار المنصور صاحب حمص وعسكر حلب إلى حَرَّان، فالتقوا مع الخُوارَزْمية، فكسروا الخوارزمية، ومزَّقوهم كل ممزَّق.

وفيها شَرَعَ الصالح أيوب في عمارة المدارس بين القَصْرين، وقلعة الجزيرة، وأخذ أملاك الناس، وأخرب نيفاً وثلاثين مسجداً، وقطع ألف نخلة، وغَرِمَ عليها دَخْلَ مِصْر سنين كثيرة، فأخربها الترك سنة إحدى وخمسين وست مئة.

وفيها تخلَّص الصَّفي إبراهيم بن مرزوق من حبس حمص بعد اليأس منه، وكان الجواد وأسد الدين قد اتَّفقا عليه، وأخذا منه أربع مئة ألف دينار، وبقي محبوساً ثلاث سنين.

وفيها اتَّفق شهابُ الدِّين غازي مع الخُوارَزْمية، ومضوا إلى ميَّافارِقِين، ونزلوا بها، وجاءه عسكر حلب، ونزل الجزيرة بالخوارزمية، فنهبوا وقتلوا، وجرت حروبٌ كثيرة مع المواصلة، وصاحب ماردِين.

السنة الأربعون وستّ مئة

فيها عَزَمَ الصَّالح أيوب على التوجُّه إلى الشَّام، فقيل له: البلاد مختلفة، والعساكر مختلفة. فجهَّزَ العساكر، وأقام [أياماً، ولم يتهيأ له سفر][1].

وفيها كانت وقعة عظيمةٌ بين الحلبيين والخُوارَزْمية، وكان غازي صاحب مَيَّافارقين مع الخوارزمية، وقد أخربوا بلاد المَوْصِل، وماردِين، وحلفوا لغازي وحلف لهم، ووافقهم صاحبُ ماردين، وجمع غازي الخانات، وشاورهم، فقالوا: لا بُدَّ من اللقاء. فقال: المصلحة أن نمضي ونخرب بلد الموصل. فلم يلتفتوا إليه، فلما كان ثامن وعشرين المحرم ركبوا، وطلبوا[2] من جبل ماردين إلى الخابور، وساقوا إلى المَجْدَل،

(١) ما بين حاصرتين من (ش).

(٢) أي أغاروا، انظر «تكملة المعاجم العربية» لدوزي (الترجمة العربية): ٧/ ٦٢ .

ووقف الخانات ميمنةً وميسرةً، وغازي في القلب، واقتتلوا، فصدمهم عسكر حلب صدمةَ رجلٍ واحد، فانهزموا لا يلوون على شيء، وتبعهم الحلبيون يقتلون ويأسرون، وأُخذت أثقال غازي وعسكره وأغنام التركمان وخيلهم ونساؤهم، وكانوا خلقاً عظيماً، وبِيْعَ الفرس بخمسة دراهم، ورأس الغنم بدِرْهم، ونُهبت نَصِيْبين، وسُبي نساؤها، وكانت قد نهبت مراراً مقدار سبع عشرة مرة من المواصلة والخوارزمية وعسكر ميافارقين وماردين، وعاد غازي إلى مَيَّافارقين، وتفرقت الخوارزمية، ثم اجتمعوا على نَصِيبين، ثم رحلوا، فنزلوا رأس عين، فقتلوا أهلها ونهبوا الأموال وسبوا النِّساء، وفعلوا بالخابور كذلك، ونهبوا أغنام التركمان.

وفيها جاء إلى غازي منشور بخِلاط وأعمالها مع شمس الدِّين النَّائب بالرُّوم، فتسلَّم غازي خِلاط وما فيها.

وفيها توفي

كمال الدِّين، أحمد[1]

ابن صدر الدين شيخ الشيوخ بغَزَّة في صفر عن ستٍّ وخمسين سنة، وبنى عليه أخوه معين الدين قُبَّة على جانب الطَّريق، وكان قد كسره الجواد بعسكر النَّاصر داود، وقيل: إنه سُمَّ، وكتب إلى ابنِ عمه سعد الدين: [من البسيط]

لو أنَّ في الأرض جنَّاتٍ مزخرفةً ... تحُفُّ أركانَها الوِلْدان والخَدَمُ

ولم تكن رَأْيَ عَيْني فالوجودُ بها ... إذْ لا أراكَ وجودٌ كلُّه عَدَمُ

الإمام المستنصر بالله[2]

أبو جعفر منصور بن محمد الظَّاهر.

---

(١) له ترجمة في «التكملة» للمنذري: ٣/ ٥٩٨، و«المذيل على الروضتين»: ٢/ ٦٠، وفيه تتمة مصادر ترجمته.

(٢) له ترجمة في «التكملة» للمنذري: ٣/ ٦٠٧، و«سير أعلام النبلاء»: ٢٣/ ١٥٥ ـ ١٦٧، و«المذيل على الروضتين»٢/ ٦٠، وفيه تتمة مصادر ترجمته.

كان جَوَاداً، سَمْحاً، عادلاً، قريباً من النَّاس، رحوم القلب، متصدِّقاً سراً وجهراً، عمر المدرسة الشَّاطئية[١]، ووقفها على المذاهب الأربعة، ووقف عليها الأوقاف الكثيرة، ونَقَلَ إليها الخطوط المنسوبة بخطِّ ابنِ البواب، وابن مُقْلة وغيرهما، ورتَّب للفقهاء جميع ما يحتاجون إليه من الأطعمة والأشربة والجامكيات والفواكه في حينها، حتى المارَسْتان والحمام فيها، ولم يكن عنده تعصُّب على مذهب، وليس في الدنيا مثل هذه المدرسة، ولا بني مثلها [في سالف الأعوام، فهي][٢] في العراق كجامع دمشق وقُبَّة الصخرة بالشَّام، وبنى المساجد والمشاهد، وعمر الخانات في الطُّرقات، وكان يزور الصَّالحين ويبرهم، ويحسن إليهم، ويتفقدهم، ويزور المشهدين: مشهد علي والحسين ﷺ، ويحسن إلى العلويين، ويُنْعم على المجاورين، ولم يكن للمال عنده قدر، [[٣]ولما وردت بغداد في سنة أربع وأربعين وست مئة حكى لي الثقات عنه أَنَّ له الأحوال الجليلة؛ منها أنه] كان يزور الشيخ عبد العزيز النَّاسخ بالحريم الطَّاهري، ويغشاه كثيراً، فقال له يوماً: أنا لا أثاب على ما أفعله. فقال له عبد العزيز: الله الله يا مولانا، إذا لم تثاب[٤] أنت مَنْ يثاب! فقال: لأَنَّ المال الذي أنفقه في أبواب البر ما له عندي قدر بل مثل التراب، والثواب إنما يكون على قدر المشقة.

و[منها أنه][٢] كان يمضي إلى العَلْث؛ قرية من دُجَيْل، بينها وبين بغداد مسيرة يومين حتى يزور إسحاق العَلْثي الحَنْبلي.

و[منها أنه][٢] لما كان النَّاصر في الحياة كان قد بنى عنده في الدَّار بركة للمال، فكان يقول: ترى أعيش حتى أملأها ذهباً؟ فلما ولي المستنصر وقف عليها، وقال: ترى أعيش حتى أفرغها؟

---

(١) بناها على دجلة من الجانب الشرقي، وربما لذلك سماها هنا الشاطئية، وقد عرفت فيما بعد بالمستنصرية، وما زالت آثارها قائمة إلى الآن.

(٢) ما بين حاصرتين من (ش).

(٣) في (ت): وكان يزور، والمثبت ما بين حاصرتين من (ش).

(٤) كذا.

و[منها أنه] [1] ركب يوماً للصَّيْد في رمضان، فاجتاز بين الحربية ودار القز ـ محلَّتين بالجانب الغربي من بغداد ـ فرأى شيخاً كبيراً، معه قدحٌ فيه طبيخ قد أخذه من العتَّابيين، وهو يريد أن يدخل الحربية، وكان في كلِّ محلة دار مضيف [في رمضان، فقال له: يا شيخ، ممن أنت؟ قال: من الحربية. قال: أما عندكم دار مضيف؟ قال: بلى][1]. قال: فلِمَ تأخذ من الموضعين؟! فبكى الشيخ، وقال: والله ما أخذتُ من المحلَّتين، وإنما أنا رجلٌ كان لله عليَّ نعمة، وكان لي مال كثير، فافتقرت، وذهب المال والولد وأستحيي من أهل محلَّتي أن آخذ من دار المضيف، فأنا أمضي إلى المحلَّة التي لا أعرف فيها، فآخذ الطَّعام في القدح، وآتي إلى باب الحربية، فإذا أذن المغرب، ودخل النَّاس في الصَّلاة دخلتُ بيتي ولا يراني أحد. فبكى الخليفة، وقال لنفسه: ويحك يا منصور! ما جوابك غداً إذا سألك الله عن هذا الفقير المحتاج؟ ثم أعطاه ألف دينار، وقال: إذا نفدت، فتعال إلى باب البَدْرية. فأخذ المال، ومن فرحته انشقَّ قلبه، فعاش عشرين يوماً، ومات، وطولع الخليفة، فقيل له: ما نقص منه غير دينار واحد، فقال: إن كان له ورثة، فادفعوه إليهم، وإلا فأذنت لكم أن تتصدَّقوا به في الحربية على الفقراء، فهذا مال أخرجناه لله فلا نرجع [فيه، ولا يدخل][1] إلينا.

وكانت وفاته [في هذه السنة]، وحمل إلى الرّصافة، وحزن عليه الخَلْقُ حُزْناً عظيماً لإحسانه إليهم، وعمل له العزاء ببغداد والبلاد كلها ثلاثة أيام، وولي ولده عبد الله.

الباب التَّاسع والثلاثون في خلافته، ولقبه المستعصم بالله

السنة الحادية والأربعون وست مئة

فيها تردَّدت الرُّسُل بين الصَّالح أيوب وعمه الصَّالح إسماعيل في الصُّلْح، وقدم الشَّرف بن التِّبْنِيني، والأصيل الإسعردي الخطيب، وأُطلق المغيث بن الصالح أيوب، وركب، وخُطِبَ للصَّالح أيوب بدمشق، ولم يبق إلا أن يتوجَّه المغيث إلى مِصْر، ورضي الصَّالح أيوب ببقاء دمشق على عَمِّه الصَّالح بعد أن يسلِّم إليه ولده عمر

(١) ما بين حاصرتين من (ش).